قراءة ثقافية لخطاب المستشرقين الإسبان بين مركزية الذات، وهامشية الآخر الأندلسي.

A Cultural Reading on Spanish Orientalists' Discourse: Between the Centeredness of the Self and the Peripherality of the Andalusian Other

ط/ زيطاري أحلام

أ.د سعاد شريف

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت - (الجزائر)
مخبر ، الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة.

zitari.ahlem@cuniv-tissemsilt.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/08/07 تاريخ النشر: 2022/03/15

ملخص:

تهدف هذه القراءة النقدية الثقافية لبيان أوجه الخطاب الاستشراقي الإسباني المتعدّدة، وكشف المرجعية الثقافية المضمرة، والتي تتجسد في أنساق ثقافية مختفيّة تحت أقنعة متعددة، لتكوين صورة الذات الإسباني والآخر العربي الأندلسي، وعلاقتهم الثقافية، ولقد اخترنا خطابات المستشرقين الإسبان كموضوع للدراسة والبحث، بواسطة تطبيق آليات القراءة النقدية الثقافية، ونظرية الأنا والآخر ومسألة التقبل والرفض، لمعرفة مدى تأثيرها في الحراك الثقافي، بين فكرة هيمنة ذات المستشرق الإسباني وإقصاء ثقافة الآخر الأندلسي، لنختم بجملة من النتائج أهمها أن خطاب المستشرقين يبرز الكثير من الأنساق الثقافية وصراع بين المركز والهامش، بين المستشرق الإسباني الذي يحاول فرض هيمنته على الآخر العربي الأندلسي ومحو ثقافته وعدم الاعتراف بحضارته، ونسبها للسكان الأصليين لشبه الجزيرة الأيبيرية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق الإسباني،، الذات والآخر، النقد الثقافي، الهامش والمركز،القراءة.

Abstract:

This study is a critical cultural reading that illustrates the various aspects of Spanish orientalist discourse. It unveils the embedded cultural reference manifesting through several masked cultural patterns. These patterns shape the self's image, the image of the Andalusian other, and the cultural relationship between them. We opted for Spanish orientalist discourse as a research subject. We applied critical cultural reading principles, Self - Other theory, as well as the question of acceptance and intolerance, to measure the extent to which discourse impacts the cultural movement between Spanish orientalist dominance and the exclusion of the Andalusian other and his culture. T

he conclusion comes with several results: Orientalist discourse reflects several cultural patterns that mirror the struggle between center and periphery, between Spanish orientalist and Andalusian other; a struggle through which the former exercises dominance over the latter, through which he deculturizes him, delegitimizes his civilization, and appropriates it to the natives of the Iberian Peninsula.

Keywords: Spanish orientalism, Andalusian, Self and other, Cultural critique, Periphery and center, Reading.

توطـــــئة:

كان الصراع الأزلي بين الذات والآخر يحمل معه فرص اللقاء والتجديد والتجدد، مؤدياً إلى امتزاج الثقافات والأعراف رغم محاولة الشعوب الحفاظ على نقاء العرق وصفاء الثقافة لكن لا تخلو ثقافة من الثقافات من تمثيل للذّات أو الآخر، فالتمثيل هو الذّي يعطي للجماعة صورة ما عن نفسها وعن الآخر، ففي كلّ ذات إنسانية آخر مضمر ومستتر، يأخذ أشكالا كثيرة، قد يكون وعياً أو مرجعية أو صوراً راسخة في اللاشعور يعود إليها صاحبها في أوقات معيّنة وظروف ومواقف محدّدة، يسألها ويستفهمها، فهي ضرورية لوجوده وكينونته.

وإذا كانت هذه الصورة للآخر الداخلي، فإنّ وجود الآخر الخارجي يصبح حتميةً، بعده المرآة والنموذج فكلّ الثقافات الإنسانية والحضارات البشرية المختلفة تحمل صورةً ما للآخر فهذه الصورة التي نشأت عقب الصراع العنيف بين الإنسان والإنسان منذ العصور الأولى لنشأته وتطوره وما يزال هذا الصراع مستمراً إلى أجل محال تحديده فكلما ترى الذّات أنه مخالف لها أو

مختلف عنها نطلق عليه اسم الآخر، وكلّ صراع يبتدئ من وضع كلّ ذات للأخرى في حيّز الآخرية، ولا يكون هناك صراع ما لم يكن هناك آخر بالنسبة للذّات سواء ذات فردية أو جماعية، وطبعا تبقى الكتابة أهم طريقة لتمثيل هذا الآخر وثقافته.

وهذا ما يحاول النقد الثقافي دراسته وتحليله بواسطة كشف الأنساق المضمرة والمتخفية داخل الخطاب، ونحن بدورنا سنقوم بقراءة لخطاب المستشرقين الإسبان. وبناءً عليه فإن الجدلية في هذه الدراسة تتمركز حول إثارة سلسلة من التساؤلات حول مركزية الذات وهامشية الآخر ضمن خطاب المستشرقين الإسبان. ولعل الأسئلة الأكثر حضوراً هي:

- **ماهو النقد الثقافي وما هو النسق؟ وما هي الثقافة؟**
- **من هو الأنا، ومن هو الآخر؟ و ما طبيعة دورها في دعم الإستشراق ونشأة المدرسة الإستشر اقية الإسبانية؟**

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدت على بعض الخطوات المنهجية بواسطة ضبط مفاهيم بعض المصطلحات، كمصطلح النقد الثقافي ومفهوم النسق، الاستشراق، ماهية الأنا والآخر، نشأة مدرسة الاستشراق الإسبانية وأهم رواد الاتجاه الرافض للآخر الأندلسي، ورصد مضمرات نسق الأنا والآخر، لنختم بجملة من النتائج.

مفهوم النقد الثقافي:

من المعلوم أن مصطلح الثقافة عام وعائم وفضفاض في دلالته اللغوية والاصطلاحية، ويختلف من حقل معرفي إلى آخر، وهو من المفاهيم العلمية في الثقافيتين: الغربية والعربية على حد سواء، فالثقافة بطابعها المعنوي والروحاني تختلف مدلولاتها من البنيوية إلى الأنثربولوجيا وما بعد البنيوية. وتندرج الثقافة مجاليا ضمن الحضارة التي تتقسم إلى شقين: النسق المادي والنصي، ويسمى بالتكنولوجيا، والنسق المعنوي والأخلاقي والإبداعي، ويسمى بالثقافة.[1]

يقول أرثر أيزابرجر: إن النقد الثقافي هو "نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته. وإن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية والثقافة الشعبية والحياة اليومية وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة. وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال وأيضا التفكير الفلسفي، وتحليل الوسائط والنقد الثقافي والشعبي، وبمقدوره أن يفسر نظريات

ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي، والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والانتروبولوجية، إلى آخره، ودراسات الاتصال وبحث وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة"[2].

ويكون النقد الثقافي حسب هذا المفهوم ـ نشاطا معرفيا منفتحا على جملة من التخصصات المجاورة للأدب أبرزها التحليل النفسي، والنقد الماركسي وعلم العلامات وعلمي الاجتماع والانتربولوجيا.

كما يعرفه الناقد العراقي محسن جاسم الموسوي بأنه "عبارةٌ عن فاعلية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المحض المساس به أو الخوض فيه".[3]

إن المتأمل للتعريفين السابقين يدرك أن النقد الثقافي ليس منهجا محددا بقدر ما هو مجال نقدي يستعين بأدوات إجرائية متنوعة المصادر، وهذا ما جعل بعض النقاد يرون "أن النقد الثقافي لا يزال عليل المنهج لم يشتد عوده بعد ولدرجة أنه أصبح دون منهج خاصة إذا ما قيس بصرامة المناهج النصانية التي يأتي على رأسها المنهج البنيوي"[4] ولعل ما يميز النقد الثقافي حقيقة هو سعيه دائما إلى تعديل الأدوات النقدية تعديلا ثقافيا، وهذا لن يتأتى له ما لم يكن منفتحا على المجالات المعرفية والنقدية المجاورة، وهو بهذا في حاجة إلى توظيف معطيات "السوسيولوجيا والتاريخ والمؤسساتية من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي".

الثقافة:

ليست الثقافة مجموعة من الأفكار النظرية والرؤى الفكرية؛ ولكنها نظرية في السلوك بما يرسم الطريق لحياة أجمل وأرقى، وبما يتمثل في الطابع المحلي الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، ولا تهمل ما يميز أمة من الأمم عن غيرها من الجماعات بما فيها من عقائد وقيم ولغة ودين ومقدسات وتجارب، شريطة عدم التطرف والتمحور حول الذات وإهمال الآخر وتهميشه واحتقاره وإسقاطه، باختصار أن الثقافة هي المركب الذي يجعل الفرد يتقبل الرأي الآخر بلا تشنج أو تعصب أعمى أو عدم قبوله والحكم عليه بالمسخ لأنه يرى في نفسه أو عقيدته أو رأيه أو قوميته الأصلح والأحق في البقاء وغير ذلك مرفوض[5].

مفهوم النسق الثقافي:

يعد النسق الثقافي مفهوماً مركزياً في مجال النقد الثقافي ويعود إلى تشكله نتيجة حقلين معرفيين هما النقد الحديث والأنثربولوجيا. والأنساق الثقافية بمثابة قوانين /تشريعات أرضية من صنع الإنسان، في مقابل التعاليم السماوية التي أنزلها الله تعالى في الأديان، وضعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة وهي تعبر عن تصوير الإنسان القديم لما ينبغي أن تكون عليه الحياة، والأنساق الثقافية قابلة للتطور شأنها شأن كل عناصر الحياة[6] . بمعنى أن النسق الثقافي عناصر معرفية، وفنية، وقانونية، وأخلاقية، وعقدية، متقاطعة يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر.

ماهية "الأنا"و"الآخر" :

في اللغة:

جاء في لسان العرب أن كلمة " أنا اسم مكنى وهو للمتكلم وحده، وإنما بني على الفتح فرقاً بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل أما الألف الأخيرة، أنا هي بيان الحركة في الموقف" [7] كما جاء في منجد اللغة و الأدب و العلوم أن"أنا" ضمير رفع للمتكلم و الأنانة قولك أنا"[8].

أما الآخر فقد ورد في لسان العرب «اِسم على وزن" أفعل و الأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصيغة وتصغير آخر، يقول تعالى"فآخران يقومان مقامهما"(المائدة، الآية 107).

فسره القراء فقال «معنا أحزاب، من غير دينكم من النصارى واليهود" والجمع بالواو و النون و أخريات و أخر، وحكى بعضهم: بعد الله الأخر و يقال:لا مرحبا بالآخر أي باللابعد"[9].

وورد في منجد اللغة والأدب والعلوم بمعنى"غير،ج آخر وأخريات و من الكناية (أبعد الله الآخر) أي من غاب عنا و ليس منا.[10]

اصطلاحا:

يعد مفهوم الآخر من أكثر المفاهيم حضورًا في الكتابات المعاصرة حيث إنه أصبح قضيةً مركزية في غالب الدراسات السياسية، والاقتصادية، والفكرية والثقافية، والنقدية والمؤتمرات، والندوات، والملتقيات، في معظم مناطق العالم على حد سواء . وقد يرتبط مفهوم الآخر دائما

بمفاهيم مجاورة، خاصة في الدراسات الفكرية والنقدية، أبرزها: الأنا؛ الاختلاف؛ الثقافة؛ الحضارة؛ الاستشراق؛ العرقية؛ الأقليات؛ المركز-الهامش؛ الخطاب؛ الهوية.

ويعرف مصلح النجار وآخرون "الآخر أو الآخرون" بأنهم "فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلّا في ضوء مرجع هو (الأنا)، فإذا حدّدنا هوية الأنا كان الآخر فردًا أو جماعة يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز وهو تمايز إطاره الهوية أحيانا والإجراء في أحايين أخرى"[11] ؛ إذ لا وجود لآخر دون وجود الأنا فلا بد من توفر شرط الاختلاف والتمايز حتى يمكن التفريق بينهما فكلاهما يحدد غيره ويحيل إليه، فبمجرد قول عبارة صورة الآخر يتبادر مباشرة إلى الأذهان مفهوم الذات أو الأنا.

ويقسم بعض النقاد الآخر إلى: "الآخر الفلسفي أو الفكري، الآخر النفساني، الآخر الإبداعي، الآخر الثقافي (الديني، الشعبي، الحضاري)" ويجدر بنا في هذا المقام القول : إن الآخر قد يرتبط بمفاهيمَ أخرى أبرزها: العرقية والعنصرية، لهذا فالآخر في هذا البحث يتماس مع مفهوم العرق إلى حد التداخل.

ونحن بدورنا نتناول هذه الثنائية "الأنا"و"لآخر" ، و أوجه الصدام الثقافي الذي عكسته خطابات المستشرقون الإسبان. كل ذلك جعل العلاقة بين "الأنا والآخر" (الشرق والغرب) علاقة جدلية معمقة. لهذا يتوجب علينا طرح السؤال: لماذا ترتبط قضية الإستشراق بإشكالية الأنا والآخر؟ **وما الدور الذي لعبه الإستشراق في دعم هاته الثنائية؟**

الاستشراق وثنائية "الأنا والآخر":

في تقصينا عن مفهومي "الشرق والغرب"، وجدنا أن كلمة "الشرق" أخذت عبر التاريخ مدلولا اختلف من حقبة إلى أخرى كما هو الحال بالنسبة للكلمة ،أما كلمة غرب فقد حملت أيضا دلالات عديدة، وبالبحث في البدايات الأولى التي تؤرخ العلاقة بين الشرق والغرب نجد كتابات "محمد المويلحي" في روايته حديث عيسى بن هشام، مظاهر اللقاء بين الشرق والغرب فقد عبر هذا العمل الأدبي عن فضائل ومحاسن الغرب في مقابل تخلف الشرق (الأنا) متخلف جاهل ظلامي، مزال يعيش على نمط القدميين السلفيين، في حين أن الآخر، خطا خطوات جبارة في شتى المجالات.[12]

وعليه قد تجلى لقاء الشرق بالغرب من ناحيتين، الأولى تمثلت في رحلات العرب بفكرهم وحضارتهم إلى أوروبا، وكان الاحتكاك المباشر أثناء وجود العرب ببلاد الأندلس ثماني قرون، والثانية تمثلت في وصول الغرب مستعمرا للبلاد العربية لقد انفتح الغرب على الشرق، وعكف على دراسة حضارته وفكره بدواعٍ استعمارية ربطت الاستشراق بالظاهرة الكولونيالية ومحاولة الغرب الهيمنة على الشرق والغرب بتشويه صورته ووسمه بالتخلف والدونية مقابل تفوق الغرب وتحضره، وفي هذه المسألة نخص بالذكر المعطيات التي قدمها إدوارد سعيد في كتابه الإستشراق " على أن الشرق غير قادر على معرفة نفسه، والمستشرق الغربي قادر على معرفة الشرق.

أولا: مفهوم الاستشراق:

و قبل البدء في تعريف مصطلح الاستشراق لابد أن نشير إلى أصل كلمة استشراق التي أخدت من كلمة شرق ثم أضيفت إليها الحروف الزائدة الألف والسين والتاء، ليسبصح معناها إلى طلب الشرق ـ إن صح التعبير المقصود ـ هو طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه و لغاته، ونذكر من بينها ما يأتي:

لغة:

مأخوذة من (شرق)، يقال:شرقت الشمس إذا طلعت، وهي تعني مشرق الشمس.[13] والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق.[14]

اصطلاحا :

إضافة إلى ما ذكر في المعنى اللغوي للاستشراق، فإن الباحثين في هذا المضمار طرحوا مجموعة من التعريفات له، إذ لا يمكن إيجاد تعريف جامع ومانع لهذا المصطلح، ومن أهم هذه التعريفات نذكر ما يلي :

عرف المستشرق رودي بارت حيث يقول:" الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شي إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة "شرق " وكلمة شرق تعني مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي."[15]

نشأة المدرسة الاستشراقية:

بعد أن خرج العرب من جزيرتهم وأسسوا إمبراطوريتهم الواسعة وكونوا تلك الدولة الموحدة المترامية الأطراف الممتدة من إسبانيا والمحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً وبعد أن تكونت العربية الإسلامية من مصادر أصلية كالقرآن والشعر والنثر، وتطورت لتشمل ثقافة إنسانية أعم وهي الحكمة الفارسية والهندية التي وصلت المسلمين عن طريق الترجمة في العصر العباسي وكان لهذه الحضارة مكانة وقيمة كبيرة، فكان إعجاب الغربيين بالحضارة الإسلامية عظيما خاصة الإسبان حيث أرسلت الدول الأوروبية الرهبان والقساوسة لطلب العلم والمعرفة في الجامعات العربية المنتشرة في ربوع إسبانيا وخاصة جامعة قرطبة.

فإن كانت الحرب والسلاح هما الوسيلتان اللتان اتخذهما الغرب للتعبير عن حقدهم على الإسلام فإنهم استخدموا سلاحا آخر لا يقل أهمية وخطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة، وقد تميزت كل الجهود التّي بذلها في فترة الحروب الصليبية بأنها اتسمت بالطابع الديني حيث دعا إليها رجال الدين وتعهدها الباباوات فكانت العلاقة بين الطرفين في هذه الفترة تتسم بالعداء وكانت المؤلفات تصف المسلمين بالكفرة وتلصق بهم أبشع الصور والأفعال.

فكان الاستشراق في بدايته أداة من أدوات التبشير؛ حيث سعى الرهبان والقساوسة إلى تعلم اللّغة العربية والتطلع على الدراسات الإسلامية بغية فهم هذا الدين ثم نقضه من أساسه ورد أتباعه إلى ديانتهم، وكانت صقلية وطليطلة وإسبانيا هي أكبر المنافذ التي استخدمها الرهبان لتعلم العلوم العربية رغم أن الفائدة بقيت خاصة بطبقة المثقفين ولم تمس عامة الناس، ومع ذلك بقي العلمان متجاوران وكانت معرفة كل واحد بالآخر ضئيلة للغاية فكانوا يعتبرون المسلم وثني.

اِنطفأت الحماسة التي دعت إلى قيام الحروب الصليبية بعد أن حدث ذلك الانشقاق بين الكنيسة والإمبراطورية وحدث تغيير في النظم الأوروبية بعد أن تأثرت بالمعارف الشرقية وعادت الدعوات التي تنادي بالعودة للشرق لكن الحل العسكري لم يجد آذاناً صاغية، فكان الحل السلمي هو البديل وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو التبشير لتحقيق الآمال الضائعة.

فانكبوا يدرسون تراثه الذي نقل إليهم عن طريق صقلية والأندلس وعن طريق الحروب الصليبية فنقله من اللّغة العربية واللّغات الشرقية، وأسموا مدارس اللّغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسٍ مستقلة في كبرى الجامعات لهذا التخصص. وهذا ما أدى إلى ظهر تيارات استشراقية منها الرافض للثقافة الأندلسية.[16]

رواد المدرسة الاستشراقية الإسبانية الرافضين للثقافة العربية الأندلسية:

-فرانسيسكو خافيير سيمونيت.

- بوليكاربو مينغوتي إي ترازونا.

-خوسيه أنطونيو كوندي.

-كلوديو سانشير ألبرس.

وقد برزت العديد من الرموز والأنساق الثقافية في خطاباتهم، منها من كان واضحا وصريحا ومنها ما كان مضمرًا، ظهر بوعي و بلا وعي من الكاتب حاولنا رصد بعضٍ منها .

العلاقات الثقافية الثنائية "الذات والآخر" في خطاب المستشرق الإسباني:

وكما سبق وأسلفت بأن الثقافة هي تلك السمات والخصائص التي تميز شعبًا عن آخر وفق مجموعة من الأصول والجذور التاريخية والدينية والأدبية والتربوية والاقتصادية والمعرفية والعادات والتقاليد التي تجعل لشعب هوية خاصة في خارطة الثقافة العالمية والغيرية منطقا إنسانياً قوامه العلاقة بين الذات والآخر، بواسطة أدوار متشابكة ومتكاملة ومتعاكسة، ولتحديد الذات بمختلف أبعاده لابد من وجود الآخر، ومن بين القضايا التي تربط الذات بالآخر وجود علاقة ثقافية بين الطرفين. وهذا ما تبناه النقد الثقافي و ما ركزت عليه دراستنا تفكيك الخطاب الإستشراقي الإسباني، فقد أخذت كتابات المستشرق الإسباني عن الآخر العربي الأندلسي تجاذبات فكرية ونظرية متغايرة ومتباينة، سواء على حضور الحواضن الثقافية أو على مستوى الأنساق الثقافية.

وفي خضم الصراع الذي وُلد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ولد الخطاب الاستشراقي الإسباني الذي أدى دورًا مهما، لذلك على الباحث في النقد الثقافي الكشف عنه وإظهاره، كونه يحمل أنساق ثقافية ووظيفة إيديولوجية فلإيديولوجيات يمكن أن تشتغل لصالح أنساق ثقافية

معينة، ضد أخرى؛ لأن الأنساق الثقافية نظام متواصلٌ ومتوارث في ذات الإسباني تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق المحاكاة أو التكرار أو الممارسة بشكل لا شعوري. فالمستشرق الإسباني يحمل قبل تأليفه لخطاب أو كتاب خلفيات إيديولوجية معينة في ذهنه تبناها لاشعوريا وتوارثها عبر الأجيال عن طريق الممارسة والتكرار، لذلك فهو يحاول تمرير أنساق ثقافية مضمرة في كتاباته، تعلي من ذاته الظاهر وتجعلها مركزاً وتنقص من الآخر المضمر-خادماً لهذه الإيديولوجية التي يتبناها هذا المستشرق.

إلا أنه يستطيع أن يمرر لا شعوريا هذه الحضارة الأندلسية في خطاباته ليوصلها إلى العالم، ولهذا لا يمكن فهم الخطاب الاستشراقي دون ربطه بالتجربة التاريخية التي حدثت في شبه الجزيرة الإيبيرية بين الإسبان والعرب الأندلسين، حيث يبرز المستشرق الإسباني ذاته بواسطة خطابه وعلاقته بتاريخ الجماعة التي ينتمي إليها وهي جماعة الإسبان، وبين الآخر الأندلسي الذين ظل مهمشا في النصوص، وقد كان الحديث عنه بدل أن يتحدث هو عن نفسه ويفصح عن رغباته.

وإذا كانت العلاقة بين الذات والآخر قد اِتضحت في خطاب المستشرقين الإسبان الرافضين للآخر العربي الأندلسي، منذ أن وعى المستشرق الإسباني نفسه ذاتًا تتحدث متقمصة دور العربي ومتلبسة كينونة الإسباني، فإن هذا ما طبع الخطاب الاستشراقي الإسباني الرافض للآخر الأندلسي بالذاتية فشكلت الذات هيأته وتمركزت في منتصفه بلا منازع وغدت بوصفها هوية استعلائية جغرافياً، وعرقياً، وعقلياً، وحضارياً وهذا ما سماه عابد محمد الجابري بالإقصاء[17]، حتى لا يكون مجال للآخر العربي الأندلسي أن يحضر مساوياً أو نداً أو غريماً، بل يحق له إذا حضر أن يكون مغلوباً مهمشاً أو ثانوياً أو تابعاً.

وقد ظل هذا الخطاب الاستشراقي الإسباني الرافض سائراً من دون دحض أو انقلاب، فالأنا دوما صوت إسباني مركزي، والآخر مغلوب وهامشي، وقد غلبت على أفكارهم رفع وتفوق الإسباني بالمقابل حط العربي الأندلسي بشتى أنواع العنصرية العرقية وبالإمبريالية وما إليها وسار الخطاب الاستشراقي ضمن هذا المسار النسقي، فصوت المستشرق متلبس بالذاتية والمركزية، متفاعلة مع رفض ثقافة الآخر الأندلسي بوعي وقصدية، وبلا وعي ودون قصد.

ومن هؤلاء المستشرق الإسباني خافيير سيميونيث*، الذي يعتبر أن التجربة الأندلسية كانت سبباً في انكسار سيرورة إسبانيا ويعدون الفتح الإسلامي نقمةً، أدى إلى عقم إسبانيا ثماني قرون، وكان له بصمة في الاستشراق الإسباني كما تحمل كتاباته رفض الثقافة الأندلسية وعدها

ثقافة دخيلة وغريبة عن الثقافة الإسبانية، وأغلب وصفه للمفكرين والأدباء والفقهاء والعلماء الأندلسيين بالجمود والتحجر وضيق التفكير، وقد قام بدراسة له بعنوان "تأثير أهل إسبانيا الأصليين في الحضارة الأندلسية" في مجلة مدينة الله، سنة 1870".[18]

وكذلك قد قام "سيمونيت" بجمع الكلمات الإيبرية واللاتينية التي كان يتداولها العرب بالأندلس، لإثبات تأثر مسلمي الأندلس بالحضارة اللاتينية، ولعل هذه الحاضنة الثقافية التي انطلق منها هذا المستشرق في وضع عنوان لدراسته مكنته من أن يصنع لنفسه توازيا نسقياً متناغمًا مع الآخر وإقراره بحضارة العرب الأندلسية بإسبانيا، وكل ذلك تم على نحو خفي غير قصدي ولا معلن.

ومن مؤلفات سيمونيث لبعث أفكاره القومية كتابه الموسوم بعنوان ب"تاريخ المستعربين في إسبانيا"«la historia de los mozarabes de espana 1897-1903» وقد سعى سيميونيت بواسطة هذا الكتاب إلى محاولة فصل التاريخ الثقافي لفئة المستعربين عن سياقه الأندلسي (الإسباني-العربي –الإسباني).

ووفق ما أشار إليه الغذامي عن مصطلح التورية من خلال ما صرح به عن الإزدواجية حول بعدين دلالين أحدهما قريب والأخر بعيد، فإن الآخر الأندلسي بالنسبة لذات المستشرق خافيير سيميونيث مجرد نظير ثقافي جدلي، يتم نفي ثقافته أو تقليل من قيمته بنسخ الخطاب المضاد له، كمعنى ظاهراً ، والمقصود أبعد من ما هو ظاهر، والمضمر هو محاولة الرفع من قيمة وثقافة المجتمع الإسباني، ومحاولة إبراز إبداع العنصر الإسباني بنسب الحضارة الأندلسية له وذلك لوضع قيمة له واسم بين الحضارات المجاورة في أوروبا وغيرها من العالم[19].

وينضم إلى سيمونينت بوليكاربو مينغوتي إي ترازونا(policarpo mingote y tarazona)* في كتابه "تاريخ إسبانيا" (historia de Espana) لقد سعى لتحقيق هدف سامٍ بالنسبة إليه وهو توسيع الإمبراطورية والحضارة الإسبانية وذلك بطمس الهوية الأندلسية العربية . ولذلك استعمل الواقعية التاريخية وتحدث عن الفتح الإسلامي لإسبانيا من أجل أداء حركة إمبريالية ووصف الفاتحين بالغزاة من شعب يطلق عليه المسلمون يائسة؛ لأنها لم تؤدي إلى ما كان يهدف إليه ويتمناه حيث وصفهم بأنهم خليط من القبائل الإفريقية والآسيوية والفرس والمصريين والنوبيين والبربر والعرب الذين كانت لهم السيادة لأنهم العنصر الأكثر ذكاء وخيال.

وهو هنا ـ ودون وعي منه ـ وصف العرب بأنهم شعبٌ ذكي، فالقارئ لهذا الخط يجده يكرس لمجد الحضارة الأندلسية وإبداع الآخر العربي الأندلسي بطريقة لاشعورية، فبوليكاربو ينتمي إلى أولئك المستشرقين الذين كانوا يرون أن العرب أعجبوا بحضارة إسبانيا وثقافتها وبفنونها الجميلة، وعملوا على اقتباسها واستفادوا منها في بناء ثقافتهم.

وهذه المناحي وضمن مستوى نسقي مضمر تصب في صالح ولع ذات المستشرق الإسباني بحضارة الآخر الأندلسي وما كتب عن الحضارة الأندلسية والآخر العربي ، هو نسقا تباشر الذات برصده وهو الخلفية الثقافية التي استقى منها تجربته وبنى قاعدته الإبداعية عليها بمعنى الحقائق التاريخية الممزوجة بخصوصيات واقع الآخر الأندلسي والمخلفات الحضارية من قصور وجنان التي عاش المستشرق في كنفها.

وبذلك تتخذ الذات الاستشراقية من الآخر الأندلسي مناصًا لها بناءً على أساس نسقي يعكس انفتاحا نقديا أتاح للأنا أن تحدد نقاط التلاقي التاريخية وأسس الثقافية مع الآخر من دون أن يكون في ذلك أي تبعية أو تضادية، بل هي استجابة ثقافية أنتجت جدلية نصية بين الذات والآخر عن وعي وقصدية.

الخاتمة:

نخلص بواسطة هذه الورقة البحثية التي تتعلق بالقراءة الثقافية في خطابات المستشرقين الإسبان، وتشكل ميدانا خصباً للدارسيين والباحثين للكشف عن الخلفيات الثقافية، التي تتضمنها هذه الخطابات الغنية بالرموز والإيحاءات الدلالية إلى:

- الاستشراق خطاب يبرز الكثير من التناقضات التي تعتري الأنساق الثقافية.

- الكتابة سلاح فكري اتخذه المستشرق الإسباني وسيلة لفرض ذاته وتعويض ما عجز عنه مقابل الحضارة الأندلسية.

- الخطابات الإستشراقية تضمن صراعا بين المركز والهامش، وبين ذات المستشرق الإسباني الذي يحاول فرض هيمنه وإزاء ثقافة الآخر العربي الأندلسي.

- وعليه فإن هذا المستشرق الإسباني ودون قصد منه، وعن طريقه رفض الآخر الأندلسي، ونفض الغبار عن تراث الحضارة الأندلسية وتراثها. ودرس دراسة علمية معمقة، برز اللأندلسي أكثر عن طريق هاته الكتابة، وعرف من خلالها في إسبانيا خاصة، وأوروبا عامة.

الهوامش:

[1] ينظر: عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي للنشر، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط2 ، 2001م، ص14.

2 آرثر أيزبرجر، النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د ط 2000، ص 30.

3 محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط ، 2005، ص12.

4 فخري صالح وآخرون، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت،(ط) 2007، ص 40.

5 سمير الخليل ،فضاءات النقد الثقافي،سنة 2000 ص 14.

6 ينظر: أحمد يوسف عبد الفتاح : لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الإختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت ، ط 1 ،2010، ص 151

7 ابن منظور، لسان العرب ، مج 1،، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ط .1999م ص62.

8 لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، لبنان ط1، ص19.

9 ابن منظور لسان العرب ، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ط .1999م ،ص65.

10 لويس معلوف، المرجع نفسه ص5.

11 مصلح النّجار وآخرون، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية، الأردن،ط 1، 2008، ص51 .

12 ينظر: الحاج بن علي، تمظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية. مخطوط ماجيستير. جامعة وهران ، الكلية 2009.2010. ص11.

13 ينظر: أبو بكر الرازي . مختار الصحاح دار الكتاب العربي.بيروت لبنان، ط1، 1981 ، ص 163.

14 ينظر:إبن منظور، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ط .1999م. ص 174.

15 ينظر ساسي سالم الحاج ، لقد الخطاب الاستشراقي، ج1، دار المدار الإسلامي،بيروت،سنة2002 ،ص42

16 ينظر:المرجع نفسه. ص49.

17 ينظر ،محمد عابد الجابري ،مسألة الهوية والإختلاف.العروبة ،الغرب.الإسلام.مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت ط1، 2012،ص128.

* فرانسيشكو خافيير سيميونيت 1829-1897م.مستشرق إسباني عنى خصوصا بتاريخ غرناطة، وهو معادي كل ماله صلة بلأندلس.

18 Ciudad de dios.vo 14.1870.p.p.5. 14/92-101

19 ينظر:عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المركز الثقافي العربي، الطبعة 3. 2005،ص70.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

1. عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي للنشر، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط2 ، 2001م.
2. آرثر أيزبرجر، النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د ط 2000.
3. محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط ، 2005.
4. فخري صالح وآخرون، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، (ط) 2007.

5. سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي، سنة 2000 .
6. أحمد يوسف عبد الفتاح : لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الإختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت، ط 1 ،2010.
7. لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، لبنان ط1.
8. ابن منظور لسان العرب ، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ط .1999م .
9. مصلح النّجار وآخرون، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية، الأردن،ط 1، 2008.
10. الحاج بن علي، تمظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية، مخطوط ماجيستير، جامعة وهران ، الكلية 2009.2010.
11. أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح دار الكتاب العربي،بيروت لبنان، ط1.
12. ساسي سالم الحاج ، لقد الخطاب الاستشراقي ،ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت، سنة2002.
13. حمد عابد الجابري ،مسألة الهوية والإختلاف.العروبة ،الغرب.الإسلام.مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت ط1، 2012..

- **المراجع الأجنبية:**

14. Ciudad de dios.vo 14.1870.p.p.5. 14/92-101.